

## قراءة في شخصية السيد محمد رضا الشيرازي

2017-02-27 وجدي آل مبارك

✘ مثل السيد محمد رضا الشيرازي (رض) العالم المجاهد والإنسان المثالي الذي اختزل في مكوناته الشخصية الطاقات العلمية والملكات الأخلاقية التي جذبت الناظرين إليه، ونقلتهم إلى عمق المنهل الصافي لصفات العالم الرباني الذي يُمثل مقولة الإمام جعفر الصادق (ع): (هو العالم الذي إذا نظرت إليه ذكرك الآخرة).

✘ جسدت شخصية السيد محمد رضا الشيرازي (رض) الطبيعة الإنسانية المقتدية بأخلاق جده المصطفى (ص) وأهل بيته الطاهرين، بحيث استطاع إبراز جواهرها واستنساخها و تحويلها من إطار التنظير إلى الواقع المحسوس.

✘ استطاع السيد محمد رضا الشيرازي (رض) أن يجسد خطأً ومنهجاً إسلامياً ولائياً كرسه بعمله دؤوب منذ نعومة أظفاره اختزل فيه مقومات الحركة الإنسانية بكل أبعادها وتجاذباتها من أجل الارتقاء بالإنسان لسلم السمو والكمال، ورفع كلمة الله على كل الأشهاد، عبر سلوك متميز يمثل المنهج الحقيقي لسيرة محمد وأهل بيته الطاهرين (ع).

✘ مثل السيد محمد رضا الشيرازي (رض) شجرة يافعة من البناء الروحي والأخلاقي وأنموذج راقٍ لكل إنسان سعى لحفظ كرامته في الدنيا وسعادته في الآخرة.

✘ ركز السيد محمد رضا الشيرازي (رض) في مسيرته الحياتية من أجل الوصول إلى رتبة متقدمة في درجات سلم الجهاد الأكبر المتمثل في مضمون كلام جده المصطفى (ص): عليكم بالجهاد الأكبر، فاستحق بجدارة لقب العالم المجاهد لذاته، ومداد العالم الرسالي لأُمَّته.

✘ عندما يشهد الأب (السيد محمد الشيرازي قدس الله سره)، لابنه السيد محمد رضا الشيرازي (رض) بأن ابنه لم يخلق لعالم الدنيا، لم تكن شهادة نابعة من هوى وميل من أب إلى ابنه، بقدر

كونها قراءة ثابتة ورؤية مستقبلية من عالم رباني في شخصية ابن ترك ملذات الدنيا وعاش في عالم الآخرة، فحولته إلى ملاك إنساني فريد يترفع عن سفاسف الدنيا الفانية، ويسمو نحو آفاق الآخرة الرحبة.

✘ في تصوري القاصر، لم يسع السيد محمد رضا الشيرازي(رض) إلى الحصول على درجة متقدمة في سلم العلم وتهذيب السلوك ونبل الأخلاق فحسب؛ بل كان هدفه رؤية بعيدة للوصول إلى استنساخ مثالي استثنائي في اقتدائه بسيرة وأخلاق أجداده الطاهرين (ع) أهلتهم أن يتربع على قمة من قمم التميز فيها.

✘ إن من أسرار توفيقات السيد محمد رضا الشيرازي(رض) في مسيرة حياته الجهادية والعلمية يكمن في تشبته بنص جده النبي (ص)، الذي نستلهمه من آخر نص كتبه أنامله قبل موته، والمتمثل في التمسك بالمنهج القرآني، وإتباع منهج محمد وآل محمد والدفاع عنه خطهم، الذي احتواه نص النبي (ص): إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي.

✘ بالرغم أن الطريق الدنيوي الذي سلكه السيد محمد رضا الشيرازي(رض) طيلة مسيرته الحياتية كان محفوفاً بالصعاب والمخاطر، لكن الروح الملائكية التي اختزلها بين جنبه، ومملكة السمو التي امتلكها، جعلته يقابل البشر بروح شفافة، وببسمة صادقة فانطبق عليه وصية أمير المؤمنين(ع) لهمام:

المؤمن هو الكيس الفطن، بشره في وجهه، وحزنه في قلبه، أوسع شيء صدرًا، وأذل شيء نفسًا، فنظر السيد محمد رضا الشيرازي (رض) إلى الطريق الدنيوي الصعب بنظرة الطريق الممتلئ بالورود الذي سينقله في نهاية المطاف إلى جنان الآخرة.

✘ مثلت شخصية السيد محمد رضا الشيرازي(رض) شخصية علمائية إنسانية متوازنة استطاعت أن توازن بين قوة الإيمان، ومتانة العلم وبين الانغماس في ملذات الدنيا والركون إليها، وبين إتباع الأنا ورضا الله، فظل محافظاً على توازنها الدقيق طيلة مسيرة حياته الجهادية، عبر جهاد ذاتي وطلب للعلم وخضوع الله وتواضع محمدي قل بين العلماء.

✘ بينت جوانب شخصية السيد محمد رضا الشيرازي(رض) مدى قدرة الإنسان المؤمن بعقيدته ومبادئه الدينية والأخلاقية الصادقة على تحمل جاذبية الدنيا وملذاتها، وبريق الحضارات المزيفة وهالاتها، بحيث زاد من تشبته بالوجاهة الحقيقية التي كان يرتجئها من خالقه، الذي انطبق عليه قول الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا.

✘ إن حالة الاطمئنان والسكينة التي اكتنفت شخصية السيد محمد رضا الشيرازي(ع) لم تأتي من محض صدفة أو من فراغ؛ بل جاءت من قلبه الممتلئ بالإيمان الراسخ والولاء الصادق، وتوكله وتقويضه لأموره كلها الله عز وجل.

✘ إن من ينظر لصفة الحلم والسكينة التي اكتنفت شخصية السيد محمد رضا الشيرازي(ع) يستنتج أنه العالم الرباني الذي لم ينظر لصفة الحلم كونها صفة تفاضل بين الناس؛ بقدر سمة تفرد للدنيا وقوام سعادة للآخرة.

✘ استطاع السيد محمد رضا الشيرازي(رض) تطبيق معايير التفاضل القرآني للمؤمن، حيث مثله بكمال إيماني وسمو أخلاقي، وبملكة زهد وتقوى، وبجهاد متفاني مع هوى نفس ومدارة للبشر، وبعلم غزير يشهد له بالبنان، وقرطاس خطته أنامله دلت على غزارة علمه ونبل أخلاقه.

✘ إن شفافية القلب النوراني الذي امتلكه السيد محمد رضا الشيرازي(رض) استطاعت أن تنير كوامن باطنه وواجهات ظاهره، فاستطاعت تلك الإشعاعات الولوج إلى كل قلب تلقاه وعاشره من البشر.

✘ إن المتأمل في شخصية السيد محمد رضا الشيرازي (رض) يستنتج حالة فريدة من حالات التوظيف الخاص للحس الوجداني الإنساني في شخصيته ودقته المتناهية على ضبط جزئيات حركات حياته في طريق رضا الله، لا مع خط الهوى والشيطان وميول الناس بحيث تحذر فيها من إيقاع الظلم أياً كان نوعه، فاستطاع ترويض نفسه رياضة ربانية مستمرة، حتى بالقدر الذي لا يسمح لنفسه بأذية نمل تجوب في داره، مستذكراً في ذلك كلام جده أمير المؤمنين(ع) الذي قال فيه: وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيَ الْأَقَالِمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا، عَلَى أَنْ أُعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلَبَهَا جِلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ.

✘ من يتتبع حياة السيد محمد رضا الشيرازي(ع) يدرك بعين البصيرة أنه المؤمن الذي سعى إلى إخضاع كل سلوكياته وتعاملاته إلى معيار الرضا الإلهي، فاستطاع بهذه الروح تجاوز أدق الاختبارات الحياتية باقتدار، بل حصول على درجة التميز فيها.

✘ عندما ترى عالماً سعى إلى مرضاة ربه، وأنموذجاً إنسانياً يُعظم الناس في عينيه، ويكبرهم في محضره، ويساعدهم في قضاء حوائجهم، ويصلِّهم في مرضات ربه، ويتأسى لمصائبهم، ويغض الطرف عن إساءتهم، ويفترش التراب تواضعاً لمحتاجه، فلا يمكنك أن تغض الطرف عن رضا آل الشيرازي(رض) الذي اقتفى منهاج جده القويم وسيرة أجداده الطاهرين.

✘ إن شخصية السيد محمد رضا الشيرازي(رض) هي أنموذج إنساني فريد لصناعة البدائل الإنسانية المؤمنة، فليس مبالغة أن يكون في محل القدوة التي يحتذي بها جيل الشباب والعلماء المعاصرين في تبيان قدرتهم على صناعة تلك البدائل، عبر حشد الهمم والتشجيع عن السواعد بالجد والاجتهاد، والتوكل على الله، ومواجهة النفس والهوى، والوقوف في وجه التيار الثقافي الجارف الذي يواجهونه من الداخل والخارج، كي لا يتحوّل الفرد منهم إلى مستعبّد لفترة طويلة أو أبدية بطوعه ومحض إرادته.

✘ إن المنهج التوعوي الذي انتهجه السيد محمد رضا الشيرازي(رض) في محاضراته التوعوية وبحوثه العلمية كان من أهدافها الأساسية رفع مستوى الوعي في العلاقات والمؤسسات الاجتماعية المتنوعة، كي تنمو تلك العلاقات بشكل متوازن كي تكون ضماناً لتماسك المجتمعات ومثانة العلاقات بين كل أطرافه.

✘ إن الهم الحقيقي الذي حملهُ السيد محمد رضا الشيرازي(رض) في ميرة حياته هو الدفاع عن خط الإمامة منتهجاً في ذلك سيرة جدته الصديقة فاطمة الزهراء(ع)، وصناعة العلماء العاملين والمحافظين على المنهل الولائي كل في تخصصه ومجاله، لأنه علّم أن العلم لا يواجه إلا بالعلم، والثقافة لا تواجه إلا بالثقافة، والفكر لا يواجه إلا بالفكر.

✘ بالرغم من امتلاك السيد محمد رضا الشيرازي(ع) حجية العلم والفقاهة ووصوله إلى مرتبة

الاجتهاد التي نالها من مراجع درس تحت منابرهم، لكنه حرص على تدريس مستويات علمية أقل من كفاءته العلمية التي يتمتع بها، وهذا دليل على التواضع العلمي الذي يمتلكه بين جنبيه.

✘ بالرغم من تمتع السيد محمد رضا الشيرازي(ع) بقدرة فائقة على رد الإشكالات العلمية والتشكيكات العقائدية لكننا لم نسمع عنه يوماً من يوم الأيام أنه أدعى في نقاشاته العلمية والفقهية احتكار الحقيقة المطلقة، أو عمد إلى تسقيط الأشخاص، أو الاستخفاف بجهود الآخرين واستنتاجاتهم العلمية؛ بل جسد في محاضراته ودروسه العلمية أدب الحوار والنقاش بلغة حانية من التوجيه والنصيحة، والبعد عن مصطلحات التسقيط والتسفيه، فكان مشروعه العلمي والفكري مشروعاً دينياً إصلاحياً رزيناً ينصفه العدو قبل الصديق.

✘ ترك السيد محمد رضا الشيرازي(رض) تركة علمية وفكرية تمثلت بمئات المحاضرات والدروس الحوزوية، والكتب العلمية ذات القيمة الكبيرة منها: كتاب ومضات، وكتاب دور الإمام المهدي في حياتنا، وكتاب كيف نفهم القرآن؟، وكتاب الترتب، وكتاب مظلومية الزهراء(ع)، التي يمكن للمنتفعين من عامة الناس وطلاب العلم الاستفادة منها في دروب المعرفة والتعلم.

✘ يمثل السيد محمد رضا الشيرازي(رض) النموذج الإيماني الحائز على شهادة من الرقي الأخلاقي في تهذيب النفس وترويضها، في رياضة إيمانية روحانية تجلت في سلوكياته وتعاملاته التي شهد بها المخالفين له قبل المريدين له، وهي صفة المؤمنين السالكين طريق النجاة بحيث طبق مقولة جده أمير المؤمنين (ع) على نفسه: "إنَّ الله تعالى يحب المؤمن العالم الفقيه، الزاهد الخاشع، الحييِّ العليم، الحسن الخلق، المقتصد المنصف".

✘ ما يميز الشخصية الإيمانية والروحية للسيد محمد رضا الشيرازي(رض) بين نظرائه من العلماء هو حفاظه على كمالياته العلمية والإيمانية بحيث لم تمنعه من ممارسة الدور الرسالي والتوعوي تجاه المجتمعات المسلمة، فحرص على التواصل مع العلماء في الحوزات الدينية المختلفة، والانخراط مع عامة الناس، آخذاً بوصية جده أمير المؤمنين (ع): وحسن مع الناس خلُقك حتى إذا غبت عنهم حنوا إليك وإذا متَّ بكَوًّا عليك.

✘ تمتعت توجيهات السيد محمد رضا الشيرازي (رض) بجاذبية من فيض الكلمات الموزونة الدالة على زخم العلم والمعرفة التي يمتلكها، والتميزة بدقة التعبير وترابط الأفكار وسلاسة المعاني، وقوة المحتوى وسهولة المضمون، بحيث أعطت تلك الميزات كلماته الإيمانية والتربوية إيقاعاً خاصاً في النفوس، وتأثيراً سحرياً في ضمير متلقيها ومتابعيها.

✘ لاشك أن النبوة الهادئة التي تستشف من كلام السيد محمد رضا الشيرازي(رض) كانت مدفوعة بقوة الإيمان وذرة الإخلاص، ومدعومة بإشارات هادئة من يديه، ونظرة حانية مرتسمة على محياها، فكانت ألفاظه كسحر خفي يجذب المستمعين والناظرين إليه تنطلق من شفثيه كسهام موجهة تخترق مسافات شاسعة عبر الأثير لترتبع في قلوب سامعيها ومتلقيها، فيربطهم بعالم الدين والقيم والأخلاق ويذكرهم بخالقهم وآخرتهم.

✘ ليس من السهل على أي متحدث أو عالم أو مثقف مهما بلغت براعته وقدرته اللغوية والإلقاءية امتلاك قلوب الملايين في العالم بهذه السرعة الفائقة التي تسبق عمره وزمانه -كما صنع السيد محمد رضا الشيرازي(رض)، ويعود ذلك إلى استشعار المتابعين والمشاهدين للبعد الإيماني والروحاني المتمثل في صفاء السريرة وشفافية القلب التي امتلكها، ومستوى الإخلاص في عمله، بالإضافة إلى نصائحه النورانية التي احتوتها شخصيته العملاقة، لأن قلوب الملايين في العالم متعطشة لمثل هذا الغذاء الروحي والإيماني الذي زودهم به، في زمن تكالبت فيه معظم بني البشر على عالم الماديات والشهوات.

✘ إن استغلال السيد محمد رضا الشيرازي (رض) لكل ثانية من أوقاته، ودقته في الالتزام بمواعيده دليل قاطع أنه المستثمر الرابع الذي استثمر كل لحظة من عمره في طلب العلم وعمل الخيرات وصلة الاخوان، بحيث كان تمنى أن شيعة جده أمير المؤمنين(ع) من نظرائه المستثمرين.

✘ إن الصفة المتميزة في شخصية السيد محمد رضا الشيرازي(رض) تمثلت في دقته المتناهية في محاسبة النفس طيلة مسيرة حياته، بدليل القصاصة الورقية التي وُجدت في جيبه قبيل وفاته، آخذاً بقول أمير المؤمنين (ع): "ليس منا من لم يحاسب نفسه كل يوم فإن عمل خيراً استزاده وإن عمل شراً استغفر الله".

☒ من دلائل الدقة المتناهية لمحاسبة السيد محمد رضا الشيرازي(رض) لنفسه إعادته لصلاته، وحرصه أثناء إلقاء دروسه ومحاضراته على نقل نصوص الأحاديث والروايات من مصادرها وكتبها الموثوقة، بالرغم من حفظه لها، ومن خلال تأنيه في إطلاق كلمات النصح والإرشاد التي تطلقها شفتاه في محاضراته، وتحريه في اختيار اللفظ المناسب، ومدى ملائمته قبل التفوه به حتى لا يكون اللفظ خادشا للحياء !! آخذاً بقول الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

☒ عندما يُطلق مرجعاً دينياً معاصراً شهادة يتوسم فيها مستقبل الإسلام في شخصية السيد محمد رضا الشيرازي (رض)، فهي شهادة ليست مبالغ فيها على الإطلاق، بل شهادة علمية وأخلاقية منصفة دلت على أن هذه الشخصية العلمائية امتلكت من الطاقات والمؤهلات العلمية والأخلاقية الاستثنائية التي تؤهله على اكتساح العالم بأخلاقه ومرجعيته -لو قُدر له البقاء في عالم الدنيا.

☒ إن حالة الحزن والأسى التي اعترت ملايين الناس في العالم بكل توجهاتهم الدينية والاجتماعية لفقد السيد محمد رضا الشيرازي(رض)، ماهي إلا مصداق لقول الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا.

☒ إن صورة التشيع المهيب لملايين من البشر التي أحاطت بجنازة السيد محمد رضا الشيرازي(رض) في العراق لاسيما في مسقط رأسه بكربلاء المقدسة، ماهي إلا صورة عاكسة وطبيعية لمكانته في قلوب المؤمنين وعشقمهم لشخصيته المتميزة، و تثميناً للدور الرسالي الكبير، والفضل الكبير الذي قام به في هداية المجتمعات الإسلامية.

☒ أتذكر حينما استوقفني أحد المثقفين الواعين وقال لي: إذا استطاع السيد محمد رضا الشيرازي (رض) رسم صورة ناصعة من السمو والأخلاق مع المختلفين معه في الرأي والتوجه، فكيف يمكنني أن أتخيل صورة بره بأبيه وأمه؟!.

☒ عندما يصف وائلي المنبر الحسيني فتاً أبهره بغزارة علمه، ومملكه بسماحة خلقه، وعالم تربح على الأرض لأجل فقير يعرض له حاجته، و يبكيه عامل لإصراره على مشاركته الطعام على مائدته، وعن مخالفين أعجبوا بسقيهم الماء والطعام بيده فصاروا من محبيه ومنتسبي مدرسته، فاعلم أنك

أمام سيرة عالم زاهد اسمه السيد محمد رضا الشيرازي (رض) الذي اقتفى سيرة الأطهار(ع) من سلالة المصطفى (ص).

✘ قد يُشكل على من ينادي بظلامه السيد محمد رضا الشيرازي(رض)، أو تحديد جهات معينة سعت لتصفيته، لكنني على يقين أن شياطين من الأنس لم ترتض بقائه وهيمنة جاذبيته، فليس مستبعداً أن يسعى بعضهم إلى محو هالته.

✘ حينما أكتب في سيرة السيد محمد رضا الشيرازي (ع)، ليس لكونه عالمياً ينتمي لتيار ديني معين أو يمثل مدرسة بذاتها، أو من باب إقصاء وتهميش لنظرائه من العلماء والمصلحين؛ إنما من موقف الإنصاف لمكانة العالم الرباني، والموالي لأمير المؤمنين(ع) وولده، والمدافع عن عقيدته ومذهبه، والعامل بعلمه، والمعاشر للناس بخلقه، والزاهد والورع، والساعي لمرضاة ربه، فاستحق مني ومني غيري من المنصفين الإشادة بعلمه وفضيلته.

\* القطيف-الأوجام